

العودة إلى الإيمان

تأليف : الدكتور هنرى لنك
وترجمة : الأستاذ ثروت عكاشه
عرض وتحليل : الأستاذ سعيد حمزه مكرم المحامى

التي تعترض تربية أولاده وتعليمهم ،
أو التي تبرزها عاداتهم وطبائعهم ،
أو كان منهم أيضاً من يعاني صراعاً
عنيفاً بين عقائده الدينية وتجاربه
الدنيوية ، أو بين التزاماته نحو أبويه
ونحو نفسه ، ومنهم من كان يرنح
تحت بعض العادات القبيحة ويود
الخلاص منها ١١)

ترى ماذا يفعل (هنرى لنك)
إزاء هذا المعرض الزاخر بشتى
الانفعالات الحادة ، والتيارات
النفسية المتضاربة ، والانحرافات
السلوكية المدمرة ١٢)

إن بين يديه أصول علم النفس
ومناهجه فليرجع إلى ما توصى به إزاء كل
شكل ، بعد أن يفرغ من دراستها
وتشخيص علتها ، وقد فعل كما يفعل
سائر الأطباء النفسيين بيد أن النتائج
لم تكن دائماً على ما يرجو لها من

مؤلف هذا الكتاب من أعلام
علم النفس التجريبي ولذلك فهو يعلن
من البداية أن كتابه هذا إن هو إلا
الموجز لتراجم آلاف ممن ساقهم
الظروف إلى التردد على لمعالجتهم) .

وقد استطاع (هنرى لنك) خلال
خمس عشرة عاماً من العمل الدائب في
ميدان العلاج النفسي أن يتعمق
نفسيات (أربعة آلاف من الشباب
والكحول والأغنياء والفقراء والفتيان
والفتيات) .. (فمنهم من لم يستطب
أسلوب حياته ومعيشته فركن إلى
الخنول أو حاول تغييرها ، ومنهم من
كان يشكو بؤس حياته الزوجية أو كان
يسعى إلى الطلاق ، ومنهم من كان
يحد مشقة في الاختلاط بالناس
وكسب الأصدقاء أو كان يقاسى
الكثير من الخجل والحياء ، ومنهم
من كان يحاول أن يجد حلاً للمشكلات

وبمرور الزمن وجدتني قد تشبعت
بعدد لا حصر له من التعاليم الدينية التي
كنت قد تأيت عنها بنفسى منذ أكثر
من العشرين عاماً .

على أن (هنرى لنك) نفسه قد
تعرض قبل ذلك لموجة عاتية من الشك
جنحت به إلى الإلحاد الصريح . ولكنه
مال لبث أن عاد إلى إيمانه أو عاد إليه
إيمانه وها هو يشير لنا إلى الطريق التي
أفضت به إلى اليقين : (لقد أتاني الهدى
وئيداً حتى أنني لم أتيه في نفسى
خلال مراحل الأولى ، وما كان مرجع
هذا التبدل إلا تلك التجارب المتواصلة
التي صادفتني في أثناء ممارستى لمهنتى
كطبيب نفسانى .) (وقد أخذت مثل
هذه الحوادث تدفعنى خطوة إثر
أخرى حتى اقتنعت تماماً بأن كل
مكتشفات علم النفس لتقوم الشخصية
والوصول إلى سعادة النفس ورضاها
تنتهى إلى التمسك بالحقائق الدينية
القديمة والتعلق بها) .

وما أعمق دلالة مثل هذا الانقاع
الحاسم يعكس ضمير رجل يحدّثنا هو
عن نفسه فيقول : (كنت ملحدأ
عنيفاً ومقتنعاً تمام الانقاع بالحادى
ومستعد لإقناع غيرى به) ١١

نضج وإيجابية واكتمال !! وإذن فثمة
وسائل أخرى أقوى أثراً وأهدى
سبيلاً ليست على التحقيق في جعبة علم
النفس ، وليس ثم مناص من البحث
عنها في مظانها ومصادرها ويبدو أن
البحث لم يطل كثيراً (بهنرى لنك)
إذ يقول : (وسرعان ما وجدت نفسى
بعد دراسة مشكلات هؤلاء الناس
أستعين - إبان نصحى لهم - من وقت
لآخر ببعض الكتاب المقدس
ونصوصه ، وأميل إلى توصيتهم باتباع
بعض العقائد المعقولة) ويقف ليرقب
نتائج هذه الجرعات القليلة من دوائه
الجديد فيمجه أن تكون النتائج طيبة ،
ولذا هو يوصى - مطمئناً - من يبتغى
عنده العلاج أو يسأله النصح ، أو يرجو
لديه سكينه النفس - أن يلتزموا كل
أولئك في رحاب الدين والإيمان
والعقيدة !! وهكذا يحدّثنا عن أسلوبه
الجديد في العلاج فيقول : (... وما
حاولت مرة أن أعبر عن بعض
الحقائق العلية أو شبه العلية لزيد من
الناس إلا واستعنت بهذه الطريقة
فأشرت عليه باتباع سنة خلقية حميدة
ببساطتها ، ولما تعددت أوجه الشبه
بين هذه السنن الخلقية والتعاليم الدينية
تبيل فكري !! وتأثرت ميوله ،

ويسأل (هنرى لنك) نفسه
 لماذا أتردد على المعبد؟ ويجب على
 سؤاله فيقول : (لاني أذهب لأنني
 موقن تماماً أن ذهابي سيفيد برغم
 كراهيتي الشديدة للذهاب) وكأنه
 يريد أن يقول إنه ينهي الانقاف من
 الإيمان موقفاً سليماً فندع لقاءه
 الصدقة بل علينا أن نخطو إليه خطوات
 جادة هادئة (وهذا هو الاتجاه السائد
 الآن في دوائر علم النفس الحديث
 يؤكد أنه ليس للسعادة طريق غير
 العمل والسكد والفضاضة) ، (ولن
 يتسنى لنا الحصول على الشخصية
 الناجحة أو الخلق القويم عن طريق
 التأمل الباطني بل عن طريق تدريب
 النفس أي تهذيبها وحكمها والسيطرة
 عليها .)

ثم يناقش (هنرى لنك) من
 يطلق عليهم (البلهاء عبید السببية)
 أولئك الذين (تعودوا استبدال
 العمل بالتأمل والإيمان بالسببية
 والعقيدة بالتحليل) .

وإنه ليعجب للفكر الحديث حين
 يأتي أن يعترف بقصوره في آفاق
 ماوراء الطبيعة ، بل إنه ليشفق عليه
 كلما زين (غروره أن يقتحم هذه

المجاهل فما يكاد يضرب فيها حتى يعود
 وإيمانه هشيم لا يثبت أن تذروه
 الرياح .

فإذا كانت الحياة بطيئتها (ليست
 تجربة مبنية على المنطق أو على كل
 ما هو معقول) وإذا كان هناك أشياء
 كثيرة في الحياة يقف إزاءها العقل
 والمنطق عاجزين عن تفسيرها فإنه
 لا يبقى أمامنا — حتى نتجنب الشك
 والقلق والتمزق — إلا أن نؤمن بأن
 (الفكر ليس غاية في حد ذاته
 ولكنه أداة يستخدمها الإنسان
 ليكيف نفسه مع قيم الحياة العليا
 وأغراضها التي لا يمكن إدراك كنهها)
 ولعل أساس هذه القيم العليا بل إن
 قة هذه القيم هي الإيمان بوجود قوة
 (ذات بأس شديد وقدرة غالبة بحيث
 بلغ مداها هذا المبلغ السديد .
 العويص الفهم . . السهل التقدير . .
 هذه القوة سمها الخالق . . سمها الموحد
 سمها الله . .)

ويتساءل (لنك) ولكن من
 هو الله؟ وقبل أن يشتط به الخيال
 وينصرف به التفكير يجيب في حسم :
 (الله كلمة مدلولها قوة ، وأساسها يقين ،
 وباطنها مجهول) ويمضي (هنرى لنك)
 في تفسير عجز العقل البشري عن اكتناه

حقيقة الوجود الإلهي في منطق متماسك
 وواضح ، ثم ينتهي إلى أنه (لن
 نهتدى إلى حل شاف لمشكلات الحياة
 العويصة ، ولن نهل من موارد السعادة
 عن طريق تقدم المعلومات والمعرفة
 العلمية وحدها ؛ فارتقاء العلم معناه
 ازدياد الارتباك وإطراد النخبط ،
 وما لم يتم توحيد هذه العلوم كلها تحت
 راية حقائق الحياة اليومية الواضحة ،
 ولن تؤدي هذه العلوم إلى تحرير
 العقول التي ابتدعتها وابتكرتها ، بل
 مستقود حتما إلى انهيار هذه العقول ..
 كما أن هذا التوحيد لا بد أن يأتي عن
 طريق آخر غير طزيق العلم ، وأعني
 به عن طريق الإيمان .. الإيمان ببعض
 قيم الحياة الجوهرية التي لا يستطيع
 المنطق إزاحتها أو زعزعتها)
 بل إن المؤلف لا يرى بأساً في
 الإيمان بأية عقيدة (فقد جبل
 الإنسان منذ خلق على الإيمان بعقيدة
 ما) وليكن موضوع هذه العقيدة
 ما يكون ، بالتنجيم أو السكف أو الفراسة
 أو الروحية إلخ .. إذ أنه مهما بلغت
 هذه المعتقدات من السخافة فهي أفضل
 من عدم الاعتقاد في شيء على الإطلاق
 ولئن كان الإلحاد يعد مرضاً عقلياً
 فإن إيماناً على هذه الصورة أو تلك

لا بد أن يزيد الحاسة الإنسانية
 في الإنسان قوة وتوجهاً ، ولا بد أن
 ينتهي بصاحبه إلى الإيمان (بالعقيدة
 الدينية التي تتخلل الحياة في مختلف
 نواحيها والتي لا يمكن لأي علم أن
 يقيم الدليل على بطلان مشتملاتها
 الجوهرية) ولعل من الواضح أنه
 كلما ألح دعاة السببية في تأليه العقل
 واحتقار ما عداه من طاقات الإنسان
 العاطفية والوجدانية كلما ازداد
 إحساس الإنسان بالضيق والخيرة ،
 وكلما اندلعت في ذهنه أسئلة حادة
 لا تجد لها من جواب . وهكذا يقع
 (الإنسان فريسة سهلة بين يدي تلك
 النظريات شبه العلمية التي لا تقوم
 اليوم إلا لتقوت في الغد ولتقمة سائفة
 بين برائن أذعياء الطب وتلك المذاهب
 السياسية التي أصبحت اليوم تحير
 عقله وتبلبل فكره) وما أبعد
 المؤلف مع كل هذا عن أن يقصد إلى
 تسفيه العقل أو التهوين من شأن العلم
 وإنما هو يستهجن هذه (العجرفة
 الفكرية غير المحدودة التي تحتقر قيم
 الطبيعة البشرية البسيطة الجوهرية)
 وهو لذلك يرى أن سبيل السعادة
 في هذه الحياة أن يتحد العقل مع
 الدين وبذلك يصبح (عقلاً ليس نهياً

للتيارات المختلفة التي لا تفتأ تنبع من
المعلومات المتزايدة الناتجة عن التفكير
المطلق غير المتأثر بالدين)

ثم يعقد المؤلف فصلاً بعنوان
(الخير في الاندماج مع الناس)
ينتهي فيه إلى أن أية وسيلة تقرب
الإنسان من الناس وتبهي له سبيل
التجاوب معهم لا بد أن تجد صداها
في نفسه ثقة وسكينة ومساعدة لأن
(أوجه النشاط الاجتماعي تتطلب
حياسة قدر كبير من العادات البعيدة
عن الأثرة) . وإذا كان (الغرض
الرئيسي من التربية هو بناء الشخصية
وتهذيب الأخلاق) فإن الدين وحده
يقتسم قصة المثل العليا وهو بلا مراء
أكثرها نراء بمبادئ الخلق القويم

وتحت عنوان : (إنما نحن من
يصنع الأطفال) يبحث المؤلف مشكلة
العقيدة الدينية في مرحلة الطفولة . .
ما هو سبيل الأطفال إلى اكتساب
ذلك (الشعور القوي الذي يمكنهم
به أن يميزها بين الخطأ والصواب)

حقيقة إن التعبير عن الذات —
في هذه المرحلة — ضرورة حيوية
ونفسية ، بيد أن هذا التعبير لا يكون
سليماً إلا في نطاق إطار من النظام

والعادات المصطلح عليها بين الناس
ليعيشوا معاً يسعدهم التآلف والانسجام
ولقد هدته نجاربه على آلاف من
الأطفال إلى أن التردد على حلقات
الدروس الدينية ومواظبة الوالدين
على الذهاب إلى بيوت العبادة (يجب
أن يكون على رأس قائمة العادات
الهامة اللازمة للشخصية) .

ولئن كان الآباء في أشد الحاجة
إلى من يعينهم على أداء واجبهم نحو
أبنائهم على الوجه المنشود فإن
(الدكتور هنري لنك) يرى أن :
(أعظم مصادر هذا المعدن هو الدين
فالإيمان بوجود الله ورساله وكتبه
يسبيء للأبوين ملجأ أميناً موثوقاً به
يلجئون إليه ويضع بين أيديهم سلطة
كبرى على أطفالهم كانوا يفتقرون
إليها حتماً لو لم يؤمنوا بها) ، وهكذا
نرى (أن الطفل الذي اعتنق منذ
طفولته المبكرة فكرة وجود الله بصفة
المشرع الأعلى للخير والشر يكون قد
اكتسب الحافز الجوهري الذي
سيدفع حثيثاً نحو العادات الطيبة ،
فبدلاً من أن يقوم صرح أعماله على
ما يحبه وما لا يحبه نراه يقوم على
الصواب والخطأ) .

ثم يعرج المؤلف على (الحب

الدينية الأساسية التي تحض كلها على الإيثار وحب الإنسان لأخيه واجب لا مناص منه إن كنا ننشد السعادة الزوجية هدفاً .

وللؤلف بعد كل هذا أراء إجريته في (التخطيط الاجتماعي) في محيط المجتمع الأمريكي فهو في رأيه مجتمع هارب من مسئولياته فهو يفرد مايعانيه من مشكلات (نارة إلى هذا أو ذاك ، ونارة إلى النظام الرأسمالي أو طبقة الأغنياء والموسرين أو التقدم في الصناعة الآلية أو الإنتاج المتزايد إلخ . .) وعند (هنري لك) أن المشكلة المادية ليست أم المشكلات بل لعلها المشكلة الروحية ، وإذا كانت النظم الاجتماعية والاقتصادية لا تخلو من نقص واضطراب (فإن بلوغ هذا النظام أو ذاك حد الكمال يمكن التحقيق إذا تولاه أفراد بلغوا بأنفسهم حد الكمال .)

وللدكتور (هنري لك) أيضاً آراء في التربية والتعليم لا تقل جراءة عن آرائه في التخطيط الاجتماعي قد تخالفه في بعضها ، وفي بحثه تحت عنوان (آفة التعليم) ينتهي إلى أن مناهج التعليم في حاجة إلى جميع القيم والحقائق الأساسية التي تبحث

والزواج) فلا يجعل من الجنس محوراً لبحثه كما يفعل غيره ، بل إنه يؤكد أن عشرين عاماً في دراسة السلوك البشري جعله يؤمن أن عامل الجنس في العلاقة الزوجية قد بولغ في تصوير أهميته حتى طغى على عوامل أخرى لا تقل عنه أهمية . فالزواج عنده تجربة انبساطية تجمع بين رجل وامرأة ، ومحاولة جادة جاهدة للوصول بهذه التجربة إلى الغاية منها وهي تكوين أسرة متماسكة وسعيدة . وفو يرى أن (تلك العناصر التي زتدخل ضمن تكوين الشخصية الطيبة بما في ذلك إلتزائها العاطف ، ومدى نشاطها الاجتماعي ، وشجاعتها في مقابلة الحياة . وكل عاداتها المنبسطة ، لها أكبر الأثر في الاهتداء إلى الشريك الآخر بل في نجاح الزيجة) .

وإنسان هذا شأنه لا بد أن يكون مؤمناً بمجموعة كبيرة من المثل العليا ، والدين باعتباره جوهر كل خير وجماع كل الفضائل لا يعتبر الزواج علاقة خاصة بفردين ، بل يرى فيه عقداً عاماً لا يعدد مياهج الزواج ومزاياه بل يفرض التزاماته وقيوده فرضاً .

وهكذا (نرى أن تطبيق القيم

في الطبيعة البشرية حتى يمكن
المحافظة على تلك التقاليد النبيلة
التي اكتسبها الجنس البشري ،
ووضعها في المكان اللائق بها وحتى
يمكن إخضاع الفطرية الفكرية
ولمعادها عن الأنانية ولأن نجد
ما يجمع بين تلك القيم الماضية القديمة
والمثل الحاضرة الحديثة غير الدين)

وبعد فلقد وفق الأستاذ ثروت
عكاشة في إظهار هذا للكتاب بالترجمة
إلى العربية . وإذا كان الدين لا يزال
في نفوسنا — نحن الشرقيين والعرب
بصفة خاصة — ذا أثر واضح في
توجيه نشاطنا الفكري والوجداني
فإن هذا لا ينبغي حاجتنا إلى مثل هذا
الكتاب الذي يسعد خطواتنا في
الطريق إلى الله ، وركى إيماننا بكتبه
ورسله واليوم الآخر .

والحق أن ثروت عكاشة قد
استطاع أن يجعل من ترجمة كتاب :
(العودة إلى الإيمان) الذي يوشك
أن يكون كتاباً علمياً — أثراً فنياً
يدعو إلى الإقبال عليه والارتياح إلى
مرافقة أفكاره إلى دفته الأخيرة . وقد
استطاع أيضاً أن يجنب قارئه
الوقوف طويلاً عند مصطلحات علم
النفس وكأنه يؤكد للقارئ أن
الحقيقة ليست من التعقيد والغموض
بحيث نتوسل إليها بالوسائل العلمية
الصارمة .. وإنما هي مسفرة عن
وجه المضيء في إيماننا البسيط بالقيم
الكونية والإنسانية .. وحين تشرق
في قلوبنا هذه الحقيقة الخالدة فثم
جوهر الدين .. بل ثم وجه الله .

سعيد حمزة مكرم
المحامى

العدد القادم

هو مطلع عامنا الثالث :

ثورة في التحرير : روعة في الإخراج ، تجديد كامل ،
وخطوة جبارة نحو المجلة الإسلامية الكاملة